الفصل الثالث

الواجبات الدينية الأساسية

بعد هذه المقدمة التى تحدثنا فيها عن مزية الايمان وأهميته وبيان النعم الالهية على الانسان وأهمها الهداية الدينية التى هى تمام النعمة ندخل الى موضوع الدين نفسه لنرى كيف يكون فى تعليمه سعادة البشر ولن تكون فى غيره بأى حال من الأحوال .. لذلك فالقرآن يشير الى أهميتها بالتكرار الذى يفيد التوكيد فيقول « **ان الدين عند الله الاسلام** » (١) ، ويقول : « **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** » (٢) ، ويقول : « **قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين** » (٣) ، وقوله : « **ان الحكم الا لله ، امر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » (٤) وقوله : « **فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم** » (٥) ، وقوله : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام** » (٦) وقوله « **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** »(٧) ونحب ان نبين أن الدين لا يقوم على العبادة وحدها كما يتوهم عامة الناس ، ولكنا نجده فى القرآن الكريم يقوم على

---

(١) آل عمران : ١٩ .
(٢) آل عمران : ٨٥ .
(٣) الأنعام : ١٦١ .
(٤) يوسف : ٤٠ .
(٥) الروم : ٣٠ .
(٦) الأنعام : ١٢٥ .
(٧) الصف : ٩ .

ثلاثة أركان أساسية بعد الايمان بالله وهى الأخوة والأخلاق والعبادة وهى الأنشطة العلمية للدين وفقدان ركن منه يهدمه كله ويشل فاعليته فى اثراء الحياة وسعادة الانسان كما يجب أن ننبه الى قصور الفكر الدينى السائد عن انبعاثه كحركة مؤثرة فى مجرى حياة الفرد والمجتمع والعالم ، فالدراسة الدينية الآن تنحصر فى ثلاثة اتجاهات نظرية : ناحية دينية بحت كعلوم الفقه واصول الفقه والتوحيد والتفسير والحديث وغيرها ، وناحية تاريخية كعلوم السيرة للنبى عليه الصلاة والسلام واصحابه ، ثم التاريخ الاسلامى عامة كتاريخ الدولة الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية وغيرها ، وناحية ثقافية كعلوم اللغة والنحو والصرف والمنطق والبلاغة والفلسفة وغيرها .. ولكنا لم نتنبه الى الدين كحركة بعث وانتفاضة حياة تصل الحاضر بالأمجاد الماضية .. وما حققه الدين فى مراحله السابقة من اليقظة الانسانية والحضارة الشاملة فى كل ناحية من نواحى الحياة لنتمم ما بداه السابقون .

وهذا هو دورنا فى بيان نقطة الانطلاق الجديدة التى تحل المسلمين المكان اللائق بهم فى قيادة الركب البشرى الى السعادة والرقى والتقدم بعد ما عجزت فلسفات العصر الحديث على تنوعها وكثرتها من تقديم الحل المنشود ولكى نصل الى مضمون الرسالة الاسلامية التى تعمل على خلق الفرد الصالح والمجتمع الصالح حسب توجيهات القرآن الكريم نقدم هذا البيان من نصوصه :

أولا ــ الأخــوة :

نحن نعلم أن الانسان اجتماعى بطبعه فالانسان الفرد لا يستطيع أن يحقق كماله المادى أو المعنوى الا بتفاعله وتآلفه مع الآخرين من أبناء جنسه والقرآن يضع يدنا على هذه الحقيقة فى صورتها الصحيحة

التى لا يمكن أن نجدها فى غيره من كل ما كتب المفكرون والحكماء وعندما نذكر هذا الحكم الاسلامى وفق قواعد أصول الفقه نشعر بأسف عميق أن غفل مفكرو المسلمين فى جميع العصور عن استنباط هذا الحكم الأصيل مع أنهم استنبطوا كثيرا من التفريعات التى لا تصل أهميتها الى أهمية الحكم الأساسى ، وترتب على غفلتهم ما نحن عليه اليوم من تخلف وجمود وقعود عن اللحاق بغيرنا مع أن موقفنا يجب أن يكون فى محل القيادة والتوجيه يقول تعالى : «**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**» (١) حتى نسب هذا التخلف الى تعاليم الاسلام لا الى غفلة المسلمين عن أصوله الرئيسية وهذا ما يجعلنا نركز على أهمية هذا الحكم والاسراع فى تنفيذه ولا نكتفى بالعلم به ثم نتكاسل عن تحقيقه ... فعلماء الاسلام قسموا أحكامه الى خمسة أقسام : فرض وسنة ومباح ومحرم ومكروه . وحديثنا هنا عن حكم الفرض وما ثبت من خلاصة أقوالهم من أن منكره كافر بدينه وتاركه هادم لدينه والكافر والهادم فى نهاية الأمر يستويان وقد اعتبروا المصادر الأساسية للاسلام هى القرآن والسنة وعرفوا الفرض بأنه الأمر القرآنى القاطع تعززه السنة أو تفسره وعلى حد تعبيرهم هو ما كان قطعى الدلالة قطعى الثبوت ، ثم بينوا ما يجوز وما لا يجوز ، وما ينبغى تأويله وما لا ينبغى .

فمن بين ما يجوز الاجتهاد فيه ما ورد بنص قرآنى يحتمل التأويل ولم تفسره السنة كقوله تعالى فى كفارة اليمين « **فكفارته اطعام عشرة مساكين** » (٢) فرأى بعض الفقهاء أن طعام مسكين

---

(١) البقرة : ١٤٣ . (٢) المائدة : ٨٩ .

واحد عشرة أيام يجزى كاطعام عشرة مساكين وحجتهم فى ذلك أن المقصود بالكفارة هى العقوبة المالية لاطعام المساكين وهى تتحقق باطعام مسكين واحد عشرة أيام لكن آخرين تمسكوا بظاهر النص وقالوا : لابد من اطعام عشرة مساكين ، وكذلك مما يجوز الاجتهاد فيه اذا نزل نص قرآنى وبينته السنة عددا ولكنها لم تحدد كيفيته فيجب الالتزام بتفسير الرسول للعدد لأنه مأمور بالبيان لقوله تعالى « **وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** » (١) ولكنهم قد يتأولون بالكيفية مثال ذلك كقوله تعالى : « **وآتوا الزكاة** » (٢) ولم يبين عددها ولا كيفيتها وهنا تكفلت السنة ببيان العدد فقال عليه الصلاة والسلام : « فى كل أربعون شاة سائمة شاة » وهنا تم الاجماع على فردية الزكاة ولكنهم تأولوا فى كيفيتها فقال فريق يجزى عن الشاة ثمنها نقدا فقد يكون أنفع للفقير منها عينا أما الفريق الآخر فتمسك بظاهر النص وقالوا بل يجب اخراجها عينا ولا داعى للتأويل فهذا أيضا مجال آخر للاجتهاد .

أما ما أجمعوا على ما لا يجوز الاجتهاد فيه فهو ما ورد بنص قرآنى وفسره الرسول ﷺ عددا وكيفا أو قام بتطبيقه عمليا وهو الحكم القاطع الملزم لكل مسلم يكفر منكره مثال ذلك قوله تعالى : « **واقيموا الصلاة** » (٤) نص قرآنى صريح ولكنه لم يبين عدد الصلوات ولا كيفيتها ثم تكفلت السنة بذلك فحددت العدد بقول الرسول ﷺ : «فرض على المسلمين خمس صلوات فى اليوم والليلة» ثم بين الرسول ﷺ كيفيتها بأن أقامها عمليا وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وبذلك أصبحت الصلاة بعددها وكيفيتها حكما واجب التنفيذ لا يجوز

---

(١) النحل : ٤٤ .
(٢) النور : ٥٦ .
(٣) النور : ٥٦ .

الاجتهاد فيه .. ونحن لا نريد أن نسترسل فى ذكر الأمثلة و. اتينا بهذا الحكم المجمع عليه لنتخذه مقياسا فى حكمنا على فرضية الأخوة ولم نكتف بشرح القاعدة الأصولية وحدها مجردة من التطبيق حتى لا يكون هذا الحكم محل مكابرة أو جدال .

يقول الله تعالى « **انما المؤمنون اخوة** » (١) ويقول « **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا** » (٢) ويقول : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** » (٣) . هذا عن الدعوة الى الأخوة والاتحاد والترابط .. ثم يحذر من الفرقة والتخاذل فى نص صريح فيقول : « **ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء** » (٤) ويقول : « **منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون** » (٥) . هذا عن النص القرآنى .

اما الأحاديث المعززة فكثيرة نختار من بينها قوله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله : « مثل المؤمنين فى تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ، وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله : « ان الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد وبد الله مع الجماعة » .

وبعد بيان النص القرآنى والأحاديث المعززة له ماذا عن

---

(١) الحجرات : ١٠ .
(٢) آل عمران : ١٠٣ .
(٣) التوبة : ٧١ .
(٤) الأنعام : ١٥٩ .
(٥) الروم : ٣١ ، ٣٢ .

التطبيق ؟ هنا لم يترك الرسول المؤمن فى حيرة ولم يترك لأحد مجال التأويل والاجتهاد فقال « تآخوا فى الله أخوين أخوين » ثم اشار الى على وقال : «هذا أخى» وتبعه المسلمون فآخى بعضهم بعضا ، وعلى سبيل المثال نذكر أن أبا بكر تآخى وخارجة بن زهير وأن عمر تآخى وعبد الله بن مالك وعثمان تآخى مع أوس بن ثابت وحمزة مع زيد بن حارثة وأبو عبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ وعبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع وطلحة مع كعب بن مالك وجعفر بن أبى طالب — وكان غائبا فى الحبشة — مع معاذ بن جبل وهكذا ...

ومن خلال هذا العرض يتجلى لنا حكم الاسلام فى الأخوة واضحا لا يقبل التأويل ، ولا يحتاج الى جدال فى ثبوت فرضيته كبقية الفرائض وترتب على هذا أن كان الرسول يتفقد أصحابه فى الصلاة فاذا غاب أحدهم سأل عنه أخاه فيخبره عن سبب غيابه ان كان عنده علم به أو يذهب فيسأل عنه ويعود فيخبر الرسول عن سبب غيابه مما جعل المسلمين أسرة واحدة بهذه الرابطة الدينية المقدسة وكان هذا الاخاء سببا فى انتصارهم فى كل معاركهم وفى نشر دين الله فى رحاب الأرض وفى اقامة الحضارة الاسلامية الزاهية التى بهرت أنظار العالم مما ليس له مثيل فى السابق واللاحق من الحضارات فلما غفل المسلمون عن التنبيه الى هذا الحكم الاسلامى الأساسى .. أصبحوا فى مؤخرة الصفوف وحاق بهم من الهوان ما يتألم له كل مسلم وتخلوا عن مكانتهم من القيادة الرشيدة فأضاعوا أنفسهم وأضاعوا العالم معهم لأن قيادة العالم أصبحت بعيدة عن شريعة الله التى لا يصلحه غيرها مهما يبذل الفلاسفة والمصلحون من أفكار ومقترحات ، وحتى نؤكد أن هذا الحكم من أصول الاسلام التى لا يقوم الا بها نذكر مؤاخاة النبى لعلى بن أبى طالب بالذات وكذلك مؤاخاة جعفر لمعاذ بن جبل ،

فعلى بن أبى طالب هو ابن عم النبى ﷺ وزوج ابنته وقد تربى فى بيت الرسول فى صغره وكذلك تربى الرسول فى بيت أبيه أبى طالب ومع كل هذه الروابط المركبة آخى الرسول بينه وبين على بالذات ليبين لنا أن رابطة الاسلام فوق كل رابطة سواها وليقطع الطريق على كل محاول أو متأول فى سلامة هـذا الحكم وأنه من أصـول الاسـلام وكذلك حين آخى النبى ﷺ بين جعفر وهـو مهاجر فى الحبشـة وبين معاذ بن جبل وهو مقيم بالمدينة وذلك تأكيد سـليم على تأصيل هذا الحكم .

وأوضح من ذلك فان القرآن يبين لنا بصريح اللفظ أن أخـوة المسلم أغلى من كل كنوز العالم فيقول : « **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم** » (١) ونلاحظ هنا أنه ذكرها بأسلوب النفى لا الاثبات فلو قال : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا لألفت بين قلوبهم » لكان معنى ذلك أن هذه الأخوة تعدل كل كنوز الأرض ولكنه قال : « **ما ألفت** » بالنفى ليبين لنا أنها أثمن من كل الكنوز .. ولكن السؤال الآن يأتى هكذا .. لقد آخى الرسول بين أصحابه فى المدينة وكان يضمهم مسجد واحد فكيف نطبق هذا المبدأ الاسلامى الآن ؟ والمسلمون يعدون بالملايين وينتشرون فى آلاف المساجد ؟ والجواب يسير : فما دامت لدينا القاعدة فاننا نقيس عليها بأن يقوم امام كل مسجد بتطبيق الأخوة فى مسجده فيؤاخى بين كل أثنين من المسلمين ويعلمهم أن للمسجد وظيفتان : احداهما دينية للعبادة ، والأخرى اجتماعية بين المسلمين . وقد ربط الاسلام بينهما فلا تصلح هذه الا بتلك ، والرسول يقول « جعلت لى الأرض مسجدا

---

(١) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ .

وتربتها طهورا » فأى امرىء حل بأى أرض فليصلى ، ومع ذلك فهو يقول أيضا « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرون درجة » فالعبادة خارج المسجد صحيحة ومقبولة ولكنها مع الجماعة يتضاعف أجرها مرات لما فى الجماعة من تعزيز الألفة والأخوة والآيات والأحاديث عن أهمية المسجد تثبت هذا المعنى يقول تعالى : **« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله »** (١) ويقول : **« فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله »** (٢) ويقول : **« ومن أظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها »** (٣) ومن احاديث الرسول ﷺ قوله « الا ادلكم على ما يكفر الله به الخطايا ؟ كثرة الخطا الى المساجد » ويقول : « سبعة يظلهم الله يوم القيامة تحت ظل العرش يوم لا ظل الا ظله ـ وذكر من بينهم ـ رجل تعلق قلبه بالمساجد » وهكذا .. فاذا تمت الأخوة فى المساجد فاننا يمكننا أن نربط بينها جميعا سواء بدأنا بها محليا ثم صعدنا الى العاصمة أو بدأنا من العاصمة نزولا الى القرية .. لنفرض أن نبدأ بها فى حدود محافظة كمحافظة المنيا مثلا فيقوم مدير الأوقاف .. بدعوة مفتشى المراكز للأوقاف ثم يوضح لهم هذا الحكم ويطلب منهم أن يدعوا ائمة المساجد كل فى منطقته ويوضح لهم الحكم ويطالبهم بتطبيقه فتقام رابطة المسجد ثم يجتمع الأئمة فى كل قرية فى مجلس ليؤلفوا رابطة القرية ويختار واحد منهم ليكون عضوا فى رابطة المركز ومن كل مسجد يختار عضو من رابطة المسجد فى المركز

---

(١) التوبة : ١٨ .
(٢) النور : ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) البقرة : ١١٤ .

للمحافظة ثم تقوم رابطة المحافظة بالاشراف على شئون المسلمين فى حدود المحافظة وبعد ذلك ندعو مديرو الأوقاف من باقى المحافظات ونعرض عليهم الحكم ونطلعهم على طريقة تنفيذه فتقوم باقى المحافظات بذلك ثم نختار من كل محافظة مندوبان فى الرابطة العامة بالعاصمة ثم ينشأ مجلس أعلى للاشراف على القطر كله عن طريق هذا الترابط وبذلك تتم الأخوة على مستوى الأمة كلها وتصبح المساجد وكأنها مسجد واحد ويشعر كل مسلم أنه أصبح أخا لكل مسلم .

أما لو بدأنا بها من العاصمة فيقوم بذلك مجلس مشترك من علماء الأوقاف والأزهر ويقومون بدعوة مديرى الأوقاف فى كل محافظة ويطلبون منهم ما وضحناه سابقا .. وهذا يعتبر اقتصادا للوقت ثم يتألف من هؤلاء العلماء مجلس تأسيسى مؤقت يتم تجديده بالانتخاب فى المدة التى يقررونها وعند ذلك تتحقق كلمة الله فينا « **أن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** » (١) ولكنها ليست كأى أمة متحدة غايتها الاتحاد وكفى ولكن لها مواصفات خاصة حددها القرآن بقوله « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** » (٢) وشعارها قوله تعالى : « **وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** »(٣) ويدعو هذا الى الدعوة فى سبيل الله حتى يشرق نور الاسلام على كل الأرض فيقول « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** » (٤) أى وليكن من مجموعكم يا بنى آدم أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. ومما يؤكد هذا المعنى أنه عبر بكلمة أمة ولم يعبر بكلمة طائفة كما اشار

---

(١) الأنبياء : ٩٢ .
(٢) آل عمران : ١١٠ .
(٣) المائدة : ٢ .
(٤) آل عمران : ١٠٤ .

عن التخصص فى العلوم التى لا تتيسر لكافة الناس نظرا لاشتغالهم بالأعمال الأخرى فى باقى مجالات الحياة فقال : « **وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون** » (١) وحينما نتعمق مضمون الآية الكريمة « **انما المؤمنون أخوة** » (٢) نجدها تخص المؤمنين وحدهم فى هذا الحق ولم يقل : انما الناس اخوة .. لأن الأخوة لاتكون الا بين مؤمن ومؤمن أما غير المسلم فالموقف منهم المسالمة حتى يؤمنوا .. فاذا قمنا بتطبيق هذا الحكم فاننا نكون قد حققنا النعمة الأولى من نعم الهداية الاسلامية وأقمنا المجتمع الاسلامى وندلل على ذلك بدليل واقعى ملموس فنحن ننفق على الدعوة الاسلامية مئات الملايين من الجنيهات كل عام نقتطعها من أقواتنا ونلقى بها فى البحر من غير أن تجزينا شيئا .. خذ مثلا ... اكثر من ثلاثين ألف مسجد فى مصر وحدها تكلفنا عشرات الملايين من الجنيهات كل عام ويقف على منابرها أكثر من ثلاثين ألف خطيب يلقون خطبة الجمعة فهل حققنا بهذا شيئا ذا قيمة أم أنها مجرد كلمات عابرة يضيع أثرها بعد سماعها .

وعشرات الملايين بل ومئاتها التى تنفق على وزارة الأوقاف والأزهر والمعاهد الدينية ومجمع البحوث الاسلامية ومحطة اذاعة القرآن الكريم وتحقيق التراث الاسلامى والبعوث الاسلامية والمجلات والكتب الدينية والمجلس الأعلى للشئون الاسلامية والمؤتمر الاسلامى والجمعيات الاسلامية وغيرها وغيرها .. هل استطاعت كل هذه الجهود أن تنشىء مجتمعا اسلاميا ؟ ومع أن الأخوة وحدها تقيم المجتمع الاسلامى وتشد أزر المسلمين وتعيد لهم عزتها

---

(١) التوبة : ١٢٢ . (٢) الحجرات : ١٠ .

الضائعة لا تكلف الدولة أو الشعب قرشا واحدا فأى سفاهة تكون لو قصرنا فى تحقيقها .. وليس معنى ذلك أن هذه الأجهزة غير لازمة فهى ضرورة من ضرورات المجتمع الاسلامى لنشر الوعى الدينى وازدهار الثقافة الاسلامية ولكن لما غاب هذا الحكم الاسلامى الأصيل عن أذهان المجتهدين أصبحت هذه الأجهزة عاجزة عن أداء وظيفتها لتفكك أوصال المجتمع ولم يعد الناس يحسون لها أثر أما بعد تطبيق هذا الحكم فيمكنها أن تؤدى رسالتها كاملة وتؤتى أطيب الثمرات .

***

ثانيا ــ الأخلاق :

الأخلاق فى الفكر الاسلامى عامة سواء الفكر الدينى أو الفكر الفلسفى قائمة على ركنين هما :

١ ــ الدافع الخلقى . ٢ ــ القيم الخلقية .

فالدافع هو الحافز الذى يجعل المرء يلتزم بعمل أخلاقى معين حتى وان كان ضد منفعته ، والقيم هى العمل المادى المجسد لهذه الدافع ولكن الاسلامى يمتاز عن كل التفاسير الفلسفية للأخلاق للحكم الصائب ويجعل الأفكار الأخرى متخلفة وراءه فى هذا المضمار ... والالتزام بالدافع الخلقى فطرة لدى البشر ولكنهم يختلفون فى اخلاصهم لهذا الدافع وفى تطبيقهم لبعض القيم وسنرى من المقارنة أن الفلسفة الفكرية للأخلاق قد قصرت عن المفهوم الدينى الذى أنزل على محمد ﷺ منذ أربعة عشر قرنا مع انتعاشها فى العصور الأخيرة على يد كثير من عمالقة المفكرين .. لقد أجمع مفكرو الأخلاق تقريبا على أن الدافع الخلقى هو الجزاء الذى

يتمثل في جزاء المجتمع أو الجزاء القانوني وان كان بعض المحدثين قد أشار الى جزاء باطني ولكنهم لم يحددوا تعريفه فقال بعضهم بالضمير أو الواجب أو الحاسة الخلقية .

وقد جاراهم مفكرو الاسلام فقالوا بالجزاء الأخروى الوارد في الكتاب ووقفوا عند هذا الحد ولم يتعمقوا في سر الدافع الديني الكامل في سر مفهوم الآيات .. فمن مضمون آيات القرآن نرى أن الدافع الخلقي هو الجزاء الذاتي وليس أي جزاء خارجي سواء أكان جزاء دنيويا أو أخرويا والجزاء الذاتي أي الاطمئنان النفسي واحساس السعادة بنبل العمل الخلقي وما ينطوي عليه من سمو وشرف ، وأهم من ذلك أنه لم ينظر الى الأخلاق كفرع مستقل كما يرى علماء الأخلاق وانما يجعله ركيزة الحياة المثلى بكاملها مرتبطا بكل القيم العليا في وحدة عضوية لا انفصام لها فنراه يسمي عمل الخير بلغة الفلسفة : العمل الصالح ، والعمل الصالح لا يكون جزاؤه خارجيا وانما مبعثه الجزاء الذاتي الذي ترتبط فيه سعادة المرء بعمل الخير فيكون انسانا نبيلا يشعر بأن عمل الخير نابع من فطرته لا يتكلفه ولا يضيق به ولا يبذله لقاء أي جزاء ولا يتعارض هذا مع ايمانه بالجزاء الأخروى مادام يؤمن بالله واليوم الآخر .

فالعمل الصالح اذن هو ما يصدر عن نفس صالحة تسعد به كما يؤلمها عمل الشر فتنفر منه يقول تعالى « **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها** » (١) كما أن العمل الصالح هو ما يصلح النفس ويزكيها فيقول : « **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد افلح من زكاها** » (٢) والعمل الصالح هو ما تطمئن له

---

(١) فصلت : ٤٦ .

(٢) الشمس : ٧ — ٩ .

النفس ويأنس بـــه القلب فيقول : « **يا أيتها النفس المطمئنـــة . ارجعى الى ربك راضية مرضية** » (١) فاذا فهمنا معنى العمل الصالح بأنه ما كان بدافع الجزاء الذاتى نجد صورة العصر وحدها تعتبر منهجا كامل الحياة كما يريدها القرآن للمسلمين فتصبح هذه الصورة معادلة منطقية لهذه الحياة ... فالجزاء الذاتى يترتب عليه مبدأ الحق من طريق الاقناع لأن المجتمع الذى يسود فيه مبدأ الجزاء الذاتى يكون مبرءا من الارهاب والخداع فلا يفرض على أفراده الحكم بغير دليل ولا يستغل قدرته المنطقية فى الخداع والتمويه وانما يستغل هذه القدرة فى البحث عن الحقيقة لذاتها فى صورة مقنعة تدفع بالمجتمع الى الرقى والتقدم ، وحينما يسود هذان العاملان يترتب عليهما الثقة لأن فقدان الثقة فى اى مجتمع يكون نتيجة الاستغلال والخداع . فاذا توفرت هذه المبادىء الثلاثة كان الحب نتيجة حتمية لها وبما أن ملكات الانسان العليا بعد الايمان هى العقل والخلق والعاطفة وقد وجدت ســـبيلها للانطلاق فيكون قد تحقق لكل فرد حريته لتحقيق ذاته واذا تم لكل فرد تحقيق ذاته على هذه الصورة فقد تحققت الحياة المثلى لأول مرة فى التاريخ واذا وصـــل المرء الى هذه الدرجـــة من الرقى الروحى والصفاء النفسى والتكامل الاجتماعى فقد أصبح الطريق أمامه الى الصـــلة بالله على أرقى مستوى وبذلك يتم التكامل والربط بين الايمان والعمل الصالح كما يبينه الاســـلام وحتى نتأكد من ما وضحناه فاننا يمكننا تحـــويل الصـــورة الى معادلة منطقية تعطى يقين المعادلة الرياضـــية فى الدقة والوضوح

الجزاء الذاتى + الحق من طريق الاقناع = ثقة .

الجزاء الذاتى + الحق من طريق الاقناع + الثقة = حب .

---

(١) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .

الجزاء الذاتى + الحـــق من طريق الاقنـــاع + الثقة + الحب = حرية .

الجزاء الذاتى + الحـــق من طريق الاقناع + الثقـــة + الحب + الحرية = حياة مثلى .

الجزاء الذاتى + الحـــق من طريق الاقناع + الثقـــة + الحب + الحرية = حياة مثلى + الايمان = دين الاسلام .

ومن هنا ندرك قول الامام الشافعى حينما قال عن هذه السورة : لو لم ينزل غيرها من القرآن لكفت . وندرك وصية رسول الله ﷺ لاصحابه اذا التقى اثنان منهما الا يفترقا حتى يقرأ احدهما للآخر صورة العصر (١) .

وحتى نتأكد من صحة هذا التفسير نأتى بدليلين آخرين يعززان ما ذهبنا اليه ..

الدليل الأول :

ان هـــذه السورة تناولها قبلنا كثير من المفسرين عـــلى مر العصور فلم يربطوا بين أجزائها لأنهم لم يتبينوا سر التوجيه الدينى فى معنى العمل الصالح كما وضحناه وانما نظروا الى فضائلها كبقية الفضـــائل المنتشرة فى ثنايا القرآن . فاذا رأينا ان معنى العمل الصالح ما كان بدافع الجزاء الذاتى ثم رأينا السورة تترابط على

---

(١) لنا كتاب فى هذا المعنى بعنوان الحياة المثلى وكيف نحققها صـــدر فى سلسلة اقرأ عام ١٩٦١ رقم ٢٢٢ ، يمكن العودة اليه للالمام الكامل بهذا التحليل .

هذه الصـــورة فتمثل منهجا للحياة يختلف عن جميع المناهج التى قدمتها كل الفلسفات فنطمئن الى هذا التفسير .

الدليل الثانى :

فى الكتب الرياضية ككتب الحساب مثلا نجد المؤلف يضـــع الجواب فى ورقة من الكتاب كمرشد للطالب حينما يصل الى الحل الصحيح ليطمئن على صـــحة تقديره وعندنا جواب بهذا المعنى فى سورة الرعد حيث يقول تعالى : « **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** » (١) فكلمة (طوبى) معرفة فلسفيا بأنها المجتمع المثالى أو المدينة الفاضلة او الحياة المثلى فنرى أن الانسان اذا آمن بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر وصدق منهج الحياة الدينى نال سعادة الدارين بأن يحيا حياة مثالية فى مجتمع مثالى مـــع حسن المآب فى الآخرة وبذلك يكون مفهوم هذه السورة قد جمع بين الفردوس السماوى والفردوس الأرضى معا وهو دليل آخر على صدق هذا التفسير .. ووجه الاعجاز فى القرآن الكريم أنه لم يكتب بحثا مطولا فى مجلدات كالبحوث الفلسفية وانما يحصر ذلك فى بضع كلمات بينما نرى آلاف الأبحاث التى قام بها الفلاسفة لم تستطع حتى الآن أن توفر للبشر حياة صحيحة حتى فى هذا العمر المحدود .

فالتوجيه الدينى يختلف عن التوجيه الفلســـفى فى نقطتين : الأولى أنه لم يعتمد على الجزاءات الخارجية سواء اكانت دنيوية أو أخروية وانما اعتمد على فطرة الانسان ذاته وأن عمل الخير تعبير عن ذاته بصرف النظر عن الدوافع الأخرى والتوجيه الدينى يقوم بتذكيره ان غفل عنه فى زحمة الصراع الدنيوى فهو أصل من اصول

---

(١) الرعد : ٢٩ .

الدين .. الثانى : انه لم ينظر الى الأخلاق كفرع مستقل يتناوله علماء الأخلاق وانما اقامه ركيزة للحياة المثلى وتحقيق الانسان لذاته .. ومما يعزز هذا المعنى أن القرآن يعتبر الظالم انما يظلم نفسه اولا فيقول : « **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه** » (١) ويقول : « **والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** » (٢) ويقول : « **ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون** » (٣) ويقول : « **وما ظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون** » (٤) اى انا لم نظلمهم بما امرناهم به وانما هم ظلموا انفسهم لعصيانهم بما أمرناهم به ومن الواضح أن الظالم انما يظلم نفسه أولا قبل أن يظلم غيره ، فالله قد أودع الضمير فطرة فى كل نفس والضمير ينتعش بالخير ويفزع من الشر فالذى يقترف الشر يظلم نفسه بايذاء ضميره وهو عنصر من مقوماته الذاتية ثم ينال حقد المظلوم وغضبه بل وانتقامه أن امكنته فرصة ثم تسوء سمعته فى مجتمعه بحذرهم منه وابتعادهم عن معاملته وفوق ذلك له عذاب الآخرة يوم القيامة .. ومن يعمل صالحا يرضى ضميره ويحظى باحترام مجتمعه ورضا ربه وثواب الآخرة ، وبالموازنة بين المكسب والخسارة نجد الخسارة اضعاف اضعاف ما يكسبه من الظلم .. والضمير هو السلاح القوى الذى منحه الله للانسان ليقاوم به نزعات الشيطان ذلك العدو اللدود ، الذى حذرنا الله منه فى كثير من آياته فيقول : « **ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، انما يدعوا حزبه ليكونوا من اصحاب السعير** » (٥)

---

(١) النساء : ١١٠ ، ١١١ . (٢) آل عمران : ١٣٥ .
(٣) يونس : ٤٤ . (٤) آل عمران : ١١٧ .
(٥) فاطر : ٦ .

ويقول : « **وقل لعبادى يقولوا التى هى احسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا** » (١) ويقول : « **واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته اولياء من دونى وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا** » (٢) ويقول : « **يا ايها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر** » (٣) فالشيطان عدو جبار ماكر ولكن الله وهب الانسان السلاح المضاد الذى يقهر به كيد الشيطان فالذى لا يستجيب لصوت ضميره انما يلقى سلاحه لعدوه كما ان الضمير هو باب الطريق الى الله وكلما ازداد ارتفاعه كلما قرب الانسان من ربه ، فلننظر الآن مدى ظلم الانسان لنفسه حينما لا يستجيب لصوت ضميره .. فالدافع الخلقى لا يستورده الانسان من الخارج وانما هو اصيل فى فطرته وكل ما عليه أن يعمل على تقويته بالتدريب والعزيمة فالأخلاق لا تقوم على الرغبة والرهبة وانما تقوم على الاستجابة والنفور .. الاستجابة للقيم الخلقية الدينية والنفور من المنكر الذى نهى عنه الدين تحقيقا لقول الرسول ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ويقول تعالى : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** » (٤) .. هذا عن الدافع الخلقى .

أما الجانب الآخر وهو القيم الخلقية أو الفضائل العملية فقد اهتدى البشر الى بعضها بفطرتهم وتجربتهم ولكنهم لم يتفقوا

---

(١) الاسراء : ٥٣ .
(٢) الكهف : ٥٠ .
(٣) النور : ٢١ .
(٤) النساء : ٦٥ .

عليها فخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فما يكون فضيلة فى مجتمع يكون رذيلة فى مجتمع آخر ، وما يباح فى مجتمع يكون محظورا فى غيره فهى تختلف باختلاف التجربة والمعيشـــة ، فاذا صح لدينا تفسير الدين للدافع الخلقى فيجب أن نطمئن الى صحته .. الى تجديد القيم التى تصلح للناس فى كل وزمان مكان ... وقد اجتمع كثير منها فى سورة الاسراء والفرقان والحجرات وتفرق باقيها فى سور القرآن ففى سورة الاسراء يقول الله تعالى : ((**وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن الســبيل ولا تبذر تبذيرا**)) (١) ((**ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا**)) (٢) ((**ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه ســلطانا فلا يسرف فى القتل ، انه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الأرض مرحا ، انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها . ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة**)) (٣) ويقول فى سورة الحجرات : ((**يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**)) (٤) ، ((**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نســاء من**

---

(١) الاسراء : ٢٦ .
(٢) الاسراء : ٢٩ .
(٣) الاسراء : ٣١ ــ ٣٩ .
(٤) الحجرات : ٦ .

نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيهـا الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ، ان الله توأب رحيم » (١) ، ويقول فى سورة الفرقان : « وعباد الرحمن الذين يمشـون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، ان عذابها كان غراما . انها ساءت مسـتقرا ومقاما . والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما » (٢) ويقول فى سورة المؤمنون : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضـون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » (٣) .

وهكذا بقية الفضائل الخلقية فى القرآن الكريم فالذى يطيب نفسا لعمل هذه الخيرات ويضيق لضدها هو الانسـان الأخلاقى كما يريدها الانسان والأخلاق بهذا المفهوم .. أى ، بتحديد الدافع من جهة وتحديد الفضائل الخلقية من جهة أخرى هى النعمة الثانية

---

(١) الحجرات : ١١ ، ١٢ . (٢) الفرقان : ٦٣ — ٦٨ .
(٣) المؤمنون : ١ — ١١ .

من نعم الهداية الالهية بعد الاخوة فالالتزام بالقيم الخلقية وحده لا يكفى الا اذا كان بدافع الجزاء الذاتى كما أن دافع الجزاء الذاتى لا يجزى الا اذا التزم المرء بالقيم الدينية فكلاهما متمم للآخر لمعنى الأخلاق فى الاسلام .. فأى فلسفة بشرية أمكنها أن تصل الى هذا المستوى السامى حتى الآن ؟ فقيام الأخوة هو المناخ الطبيعى لتنمية الأخلاق وتأصيلها لأن الانسان ليس كائنا مسمطا منغلقا على ذاته وانما هو محكوم بقانون الفعل ورد الفعل ، فاذا عاش فى مجتمع متآلف متكامل تهذب خلقه ونما ضميره وسعد بما يسدى من الخير لمجتمعه وما يسديه المجتمع له من الخير ومن التأثير والتأثر من الفعل ورد الفعل يصل الى كماله الانسـانى .. وعلى العكس لو عاش فى مجتمع متنافر متباغض فان ردود الفعل من المجتمع تؤلمه وتنغص عليه عيشه وتشـل فاعلية ضميره ويكون رد الفعل بجانبه سواء بسواء ، جزاء وفاقا على ما يلقى من المجتمع فتضطرب الأحوال وتسوء العلاقات ويعم الشـقاء وتختفى القيم فلا يأمر بالمعروف ولا ينه عن المنكر وبذلك يخسر الانسان الدنيا والآخرة معا ... فالانسان شاء أم ابى لابد أن يتأثر بحال مجتمعه صلاحا وفسادا ولا يمكن لفرد أن يعيش بمعزل عن مجتمعه فالبذرة الطيبة ان وجدت السماد الصـالح والرى الوافى والمناخ الملائم اكتملت ونضجت واتت بأطيب الثمر واذا لم يتوفر لها هذا تضمحل وتصير هشيما فاذا لم تتم الأخوة بين المسلمين غلب سوء الظن وانعدمت الثقة وسيطرت عصابات الاجرام على المجتمع فلا نجد لها دفعا ولا مقاومة .. فبناء الانسان يجب أن يبدأ ببناء معنوياته أولا ، ثم بعد ذلك يتم بناؤه السياسى والاقتصادى وليس العكس . وعلينا أن نعتبر بما جرى فى أوروبا من الانحلال لاهتمامهم بالماديات وحدها على حساب الروح فلم تنفعها علومها المتقدمة ولا اقتصادها الوفير

بل جعلها ترتكز الى شريعة الغاب .. فالانسان ليس حيوانا اقتصاديا غايته توفير مادياته بل قبل ذلك يجب تمكين انسانيته واخلاقياته وارتباطه ببارىء الكون فلو اهملنا بناؤه الروحى بحجة بنائه الاقتصادى أولا لخسرنا الانسان نفسه بحيث لا يمكن تعويضه بالرفاهية المادية مهما اتسعت وتنوعت . وانما نضع الاقتصاد فى مكانه الصحيح كوسيلة لا غاية .. والنفس الانسانية تمور بشتى الانفعالات والغرائز والرغبات والدين وحده هو الذى ينظم هذه النزعات ويحدد وظيفة كل منها ويضعها فى مكانها الصحيح بحيث لا يصاب المرء بالانفصام والتمزق بين شتى الاتجاهات وانما يجعلها وحدة متآلفة متناسقة يشد بعضها بعضا فلنسلم أمرنا الى الله فيما هدانا ولنتوجه اليه بالشكر على ما حبانا من فضل لا نجده فى غير تعاليمه ولنتجه اليه وحده بالعبادة وهى النعمة الثالثة من الهداية الدينية .

***

ثالثا ــ العبادة :

لقد راينا أن الله سبحانه وتعالى قد هدى البشر الى نعمتى الاخوة والاخلاق لتوثيق الصلة بين المؤمنين .. وبين لنا أن هذه الصلة اغلى من كنوز الارض لأن الانسان لا يمكنه تحقيق كماله الانسانى الا بتفاعله مع الآخرين ونضرب مثلا لذلك بالعضو فى الجسم فكل عضو له وظيفة خاصة ولكن هذه الاعضاء لا يمكن أن تؤدى وظائفها الا اذا كانت تؤلف جسدا واحدا . أما لو انفصل عضو عن هذا الجسد فستشل فاعليته ويعجز عن أداء وظيفته . كذلك الانسان كعضو فى جسد المجتمع . فلو اكتفى الدين بهذا التوجيه لكان فضله لا ينكر خاصة اذا راينا أن الفلاسفة قد أجهدوا انفسهم على مر التاريخ فى محاولة رسم الطريق الى هذه الحياة فلم يفحلوا بدليل الواقع

الذى نعيشه ونشهده ولو أن فيلسوفا سما الى هذه الأفكار لتلقفتها البشرية وطبقتها بكل اهتمام .

ولكن الله تفضل على عباده فهداهم الى الصلة به أيضا عن طريق العبادة وجعل هذه القيم مترابطة يكمل بعضها بعضا فصلة الانسان بأخيه الانسان تعمل على صفاء روحه وتزكية خلقه فيكون أقرب الى الله .. وصلة الانسان بالله تزيده صفاءا وسموا وتجعله أوثق صلة بالانسان ... ولكن العبادة كالأخلاق لها حافز روحى بجانب الأركان العملية .. وهذا الحافز الروحى يتلخص فى الاقبال على الله فى الشكر والتعظيم والحب وكلا الجانبين مرتبط بالآخر فلا تصلح العبادة الا بهما . فالذى يؤدى الصلاة بأركانها العملية وحدها وهو فارغ القلب من تأمل العظمة الالهية واستحضارها فى صلاته لا تكون عبادة ولذلك نلفت نظر الغالبية العظمى بأن الصلاة تكون بالفرح للقاء الله كما يفرح المرء بلقاء من يحب والله سبحانه وتعالى أعظم من كل حبيب والعبادة لله وحده ارتقاء بالكرامة الانسانية حتى لا يتجه بها لغير مولاه يقول تعالى : « **قل افغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون** » (١) ويقول : « **قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما اعبد . لكم دينكم ولى دين** » (٢) والله سبحانه وتعالى لخص لنا نعم الدين كله فى توثيق صلة المؤمنين ببعضهم وتوثيق صلتهم به فى هذه الآية : « **ان هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون** » (٣) بهذا التحديد

---

(١) الزمر : ٦٤ .
(٢) سورة الكافرون .
(٣) الأنبياء : ٩٢ .

الذى بينه فى الكتاب عن طريق الاخوة والأخلاق والعبادة وتلك هى النعمة الكبرى التى اختص الله بها عباده المؤمنين . وهنا يحق لنا أن نقف قليلا لنلمح الترابط بين النقط الثلاث التى أشرنا اليها حتى الآن ففى النقطة الأولى بين أن البشر طوائف ثلاث : المؤمنون ، والكافرون ، والمنافقون .. وأن المؤمنون وحدهم هم الرابحون فى الدنيا والآخرة وأن الكافرين والمنافقين هم الخاسرين دنيا وأخرى وبين فى النقطة الثانية أصول النعم الالهية على العباد وهى :

١ ــ خلق الانسان على هذه الصورة جسدا وروحا .

٢ ــ تسخير كل ما فى الكون لخدمته .

٣ ــ هدايته بالتعاليم الدينية .

وأن النعمتين الأوليين لا قيمة لهما بدون نعمة الدين ثم أشار الى الأصول الأساسية للدين وهى الاخوة والأخلاق والعبادة لتوثيق صلة الانسان بالله وبالبشر فيغتنم السعادة من جميع أطرافها .. وهذه القيم الثلاث مترابطة فيما بينها لا تتم العبادة الا وهى مجتمعة كذلك لا يتم اسلام المسلم الا بتكاملها . وحتى نجعل هذه الصورة واضحة فى الأذهان نرسم دائرة للاسلام لنعرف من هو داخلها ومن هو خارج عنها فنرى البشر ينقسمون الى خمسة أقسام اثنان فقط داخل الدائرة وثلاثة خارجها ..

القسم الأول : من هم بلا ايمان ولا أخلاق وهؤلاء مرفضون تماما من الاسلام .

القسم الثانى : من كانوا على خلق ولكن بلا ايمان ... وهذا القسم مرفوض أيضا لأن الايمان بالله أصل الدين كله كما أن العبادة لايؤديها الا مؤمن .

القسم الثالث : هم المؤمنون بالله ولكن بلا أخلاق وهؤلاء أيضا خارج دائرة الاسلام وليس كما يظن البعض أن الاسلام ينعقد بمجرد الشهادة فان القرآن قد حدد بصريح اللفظ أن المؤمن بلا خلق يتساوى مع غير المؤمن يقول تعالى : « **هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ، يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا** » (١) وآيات ربك قد تكون علامات الساعة وعلامات الموت المحقق وعندها كما يقول القرآن لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن قد آمنت من قبل أو آمنت ولكنها لم تكسب من ايمانها خيرا من عمل صالح أو خلق قويم ، وهنا نرى القرآن سوى بين النفوس التى لم تؤمن أصلا أو التى آمنت ولم تكسب من ايمانها خيرا وشاهدنا على ذلك أيضا موقف أبى بكر حينما أمر بقتال مانعى الزكاة كما أمر بقتال المرتدين سواء بسواء .

القسم الرابع : مؤمن أخلاقى ولكنه منطو على نفسه عزوف عن الجماعة بعيد عن مشكلاتهم فهو ان كان داخلا فى محيط الدائرة الا انه لا يمثل مركز الدائرة لأن الفرد لا تتكامل انسانيته الا بالتفاعل مع الآخرين ومشاركتهم همومهم وأحلامهم .

القسم الخامس : هو المؤمن الأخلاقى المتلاحم مع المجتمع يؤثر ويتاثر ويأخذ ويعطى ويسير مع القافلة لا متخلفا عنها فهو الودود الذى يألف ويؤلف كما عبر عنه الرسول ﷺ وهو المسلم المثالى الذى يرجو الاسلام لأن الاسلام لم يأت ليخاطب الناس افرادا ولكن ليقيم مجتمعا اسلاميا يكون كل فرد فيه عضو فى هذا المجتمع

---

(١) الأنعام : ١٥٨ .

قلا قيمة للمسلمين وهم فرادى وان كانوا يتمتعون بالايمان والأخلاق
ومن هنا ندرك أهمية هذه النعم الثلاث فى ترابطها لقيام المجتمع
الاسلامى المنشود كما نضيف اضافة لابد منها لزيادة الايضاح فقد
رأينا علماء الدين قالوا ان شريعة الله تقوم على دعامتين أساسيتين :
حقوق الله وحقوق البشر . ولكنهم حينما قسموا أحكامها الى فرض
وسنة وغير ذلك جعلوا الفرائض ما كانت من حقوق الله وحده وهى
الفرائض التعبدية من صلاة وزكاة وحج ولم يتنبهوا الى الفرائض
الاجتماعية أو الانسانية مثل الأخوة والأخلاق .. وكذلك حينما
قالوا بتقسيم الفرض الى قسمين : فرض عين وفرض كفاية . اقروا
فرض الكفاية التعبدى وحده كصلاة الجنازة وصلاة الجماعة ولم
يتنبهوا الى فرض الكفاية الاجتماعى الذى يقوم عليه صلاح المجتمع
من أنواع العلوم والفنون كالطب والهندسة والطبيعة والكيمياء
والزراعة والصناعة والتجارة والصيدلة وغيرها وكانت نتيجة هذا
الفهم أن صلة الانسان بالدين لا تكون فى أوقات العبادة بينما يزاول
المرء اعماله المهنية الأخرى بعيدا عن الشعور الدينى وبذلك يحدث
الانفصـــام بين الدين وبين الحياة فيكون العمل للدين فى جانب
والعمل للحياة فى جانب آخر ، أما لو علمنا أن هناك فرض كفاية
اجتماعى وأن الانسان يمارس دينه فى كل أمور الحياة ســـواء
منها الجانب التعبدى أو الجانب الاجتماعى وبذلك ينتظم الدين
نشاط المرء كله فيصبح الدين هو الحياة والحياة هى الدين ويعلم
أن كل خطوة يخطوها الى عمله زارعا فى حقله أو عاملا فى مصنعه
أو موظفا فى مكتبه تقربه الى الله بنفس القدر حينما يخطو خطوته
الى المسجد فيحس بمتعة الدين فى كل عمل يقوم به فيؤديه باخلاص
ويقظة ضمير كما يقول الرسول ﷺ « ان الله يحب اذا عمل احدكم

عملا أن يتقنه » . فلا تكون صلة الانسان بالله حين العبادة وحدها ولكن فى كل حين يقول تعالى : « **قل أن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** » (١) .

ثم نسأل هل أمكن لأى فكر بشرى حتى الآن — أو حتى يمكنه فى المستقبل — أن يهتدى وحده فى يوم من الأيام الى هذه الدرجة العليا من السمو والكمال ثم هل يتفهم المسلمون هذه المعانى ويتحمسوا لتطبيقها ليحققوا لأنفسهم ما اراده الله لهم من الرشد والصلاح وليصلوا حاضرهم بماضيهم المجيد وليأخذوا مكانهم فى قيادة البشرية الى الهدى والفلاح .. « **أن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** » (٢) .

***

(١) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ (٢) سورة ق : ٣٧ .